ترانيم مفقودة من معزوفة الخوف

محمود حسن عزوز

«... قرأت فاتِحَةً على الشُهَداءِ بِالعِبْرِيةِ الفُصْحَى
فَضَجَّ الْحَانُ بِالأفْخَاذِ وَالطَرَبِ...»

مظفّر النوّاب

حملتُ روحي المسربلة بالخوف عبر جسد تتراكم عليه الشحوم وتنمو أعضاؤه باطّراد مثير، وقد نال الحذر مني فصرت أطأ الأرض بحساب وأرهف أذنيّ الى صدى كلماتي. بدأ الأمر جيّاشاً قوياً منذ اللحظة التي أطلق فيها سراحي. وكانت أنفاسُه تزاحم أنفاسي، وخطواته تلاصق خطواتي، وطنينٌ بالأذن يدهمني حتى في منامي فأصحو هَلِعاً مذعوراً. ورأيته ذات صباح؛ كان الصابون الوافر الرغوة يغطي ذقني، والشفرة الباردة تعمل فيها بصعوبة، وفجأة ظهر لي تعلو وجهَه ابتسامةٌ ساخرة. بدا مألوفاً وغريباً في آن. استدرتُ اليه، وبكل عزم دفعته في بطنه فَعَبرتْ فيه قبضتي دون أن تنال منه. تراجع الى الوراء الى أن اصطدم بالجدار واختفى...

حشرتُ جسدي بين ركّاب ضجرين برمين، وكان العرق يتساقط مني. ذهبت إلى آخر الخط، ورجعت بأتوبيس آخر أكثر زحاماً وضجيجاً. مَثُلْتُ أمام «رئيسي» بتهمة التأخير. نظر إليّ بحنق وغيظ، ثم اكتفى بإنذاري ملمعاً إلى بدانتي المفرطة التي تعوقني وتؤثر على أدائي. تكرّر الأمرُ مرات كثيرة. ضاق ذرعاً بي وأنذرني بالفصل. أخيراً وجدتُ نفسي في الشارع أهيم على وجهي وأبحث عن عمل آخر. أعرض خدماتي بأدب جمّ، فأقابَل بفتور وقلة اكتراث، وبعد أن أُفحص من رأسي إلى أخمص قدمي أُصْرفُ بكلمة حاسمة مثل بصقة لا تُرَدّ.

أهرع إلى الزحام. أشعر به يجدّ في إثري متحيناً الفرصة للاستفراد بي. أمضي متوجساً أتحاشى التردّد، أو التهوّر، أو النظر الى الوراء. أتوه في الأسواق والموالد، أجوب الشوارع والطرقات والحارات لينتهي بي المطاف أمام إحدى العربات الخشبية التي تنتشر مثل الذباب في مدينتي تبيع الكُشَريّ أو الفولَ بالزيت الحارّ والبصل الأخضر...

اجتزتُ الميدان الكبير ساعة الذروة تلاحقني امرأة أنيقة الهندام زعمتْ أنها تُجري تحقيقاً. اقشعرّ بدني وانقبض صدري، ثم اعتذرتُ اليها، لكنها لم تيأس وألحّتْ عليّ بعد أن أبرزت بطاقة النقابة وعليها صورتها. قالت إنه مجرد سؤال عن الأكلة المفضلة، وسوف يُنشر جوابي في المجلة التي تعمل بها. ابتلعتُ سؤالي المرتاب؛ فهي لم تقصدني لشخصي وإن كانت تؤْثرني على الآخرين، لكني اشترطت عدم ذكر اسمي. وعندما ذكرت لها زنَتي بالكيلوجرامات شهقتْ وأردفتْ: «خير». قلت: «المكرونة». سألتني: «أيّ الأنواع تفضل»؟! قلت: «معكرونة بالفرن. معكرونة إسباجيتي. معكرونة لسان العصفور. معكرونة بالبيض. معكرونة بالسكر. معكرونة من غير سكر...». كنت أتحدّث بطلاقةٍ نادرة دون أن أفقد حرصي الشديد. ودّعتني شاكرة. واصلتُ سيري منتشياً كأني أحمل صكّ براءتي، واستهواني الطربُ فغنيّت:

«على بلد المحبوب ودّيني. زاد وَجْدِي والبُعْد كاويني..».

وقفتُ في الحمام عارياً لا أرى سواي. لُذْتُ بالجدار. ألصقت مؤخرتي بالرخام الأملس البارد، ووضعت يدي على عورتي، ثم أرهفتُ السمع. أدرتُ رشّاشَ الماء فوق رأسي. عيناي مفتوحتان يتخلّلهما الصابون، فأتوجّع من حرقتهما ولا أجرؤ على زرّهما. أرقب الماء ينحدر صوب المصفاة المثقوبة. بقْ... بُقْ... بُقْ.. بقْبقْبقبق.. اخترق أذنيّ الطنين على حين غرّة، فارتديت سروالي على عجل وهرولت إلى الداخل. توسّدتُ حِجْرَ امرأتي مفرجاً بين فخذيّ الملتهبيْن، وتركتُ العنان لطفلي الصغير يعبث بكرشي الرجراجة. تميل برأسها. وجهها يقابل وجهي. تحرك شفتيها. أحدّق فيها. لقد تسلق وجهه وجهها. وفي اللحظة التي هممتُ فيها بصفعه توارى....

في حجرة موحشة تفتقر الى الهواء والنور وقفتُ أمام المحقق أنتظر أمره بالجلوس. أعصرُ المنديل وراء ظهري وأمسحُ به عرقي. أوراق متناثرة انهمكَ في جمعها وترتيبها داخل أحد الملفّات. تلمع صلعتُهُ وتنزُّ منها قطراتٌ متفرّقة. كان كبيرُ الجلادين مائلاً عليه يهمس في أذنه. صمدتُ حيال عيون ثاقبة تتألق بالحماس والحيوية. قرأ عليّ تقريراً يرصد كل تحركاتي منذ غادرت آخر مرة، وأتى على تفصيلات بالغة الصِّغر والتفاهة كنت قد نسيتها. ثم أحصى في موضع آخر عَدَدَ المرات التي جامعتُ فيها امرأتي. دافعتُ عن نفسي دفاع المستميت، وفنّدتُ التهم التي واجهني بها، آخذاً بعين الاعتبار أن بعضاً منها لم يحدث بَعْدُ، كما صارحني بقوله. قلت في البداية إنّ نهمي للطعام لا يتسبّب بضرر غيري ولا يؤثّر من قريب أو بعيد على الأمن الغذائي. وأنكرتُ بشدة أن أكون قد تركت العمل

عامداً حتى يتيسّر لي الاتصال بآخرين. لم يتصل أحد بي لأن لا أحد ببساطة يدري مكاني. أشرتُ الى دفترَي التوفير الخاصَّين بزوجتي وطفلي ليعيد النظر فيهما، وقلتُ إنَّ احتجازي الذي جاوز الأسبوع هو وراء السبب في إطالة لحيتي على هذا الشكل! لم يظهر عليه أيُّ تأثر كما لو كنتُ أحدِّث في فراغ، حتى أنهيتُ كلامي أو بالأحرى لم يعد ثمة ما أقوله. وظلّ صامتاً يحدق بي كأنه لا يراني، ثم مدَّ يده يدق جرساً أسفل مكتبه، ففوَّضت أمري إلى الله..

مكثت شهرين أُطعمت فيهما الرزّ مع الملائكة: أردِّدها مازحاً بعد أن خرجتُ بجسد ليس لي وأنكرني كل من رآني. تشاجرت معها. اقترحتْ أن أذهب الى الطبيب فرفضتُ وأصررتُ أن تبقى ثيابي على حالها تتأرجح في أعضائي. الموضوع برمته مسألة وقت، ورغبتي في الطعام هذه المرة لا تدانيها رغبة. أتعرَّى كل يوم أمام المرآة أرقب جسدي في تطوره المتنامي فيما تلتئم جروحه. أشعر بالزمن خصماً لا يُرى، أنازله وأكاد أنتصر عليه. لكن هذا الذي يتبعني كظلي، متى يكفّ عن مطاردتي؟! تكرر ظهوره. بات يعلن عن حضورهِ مِنْ خلال رسائل كثيرة، ولولا ريبتي فيه لقلت إنه قرينَ دون منازع يصحبني إلى القبر. بدأ اللعبَ الآن. وقف بجواري. انتقل أمامي وأولاني ظهره. راوغني. قفز إلى السرير. انطبع على الحيطان. كان يتحرك بلا صوت دون أن تفارقه ابتسامته. لفحني لهيب أنفاسه فانتفضتُ من بؤرة أعماقي وطفقت أكبر في كل اتجاه، وأستعرض رويداً. رويداً. نفرت عروقي. انتفخت أوداجي. حين لامستُ الجدران الأربعة في الوقت ذاته أرهفت السمع. كانت أنفاسي وحدها تترى في دقةٍ وهدوء، وإذا بامرأتي تقتحم المكان وتصيح ذاهلةً:

ـ ماذا أصابك يا رجل؟! لماذا تصرخ؟

رددت عليها بأنفة وكبرياء:

ـ كيف اخترقتني يا امرأة؟

تتدهور علاقتنا وتُفرَغ يوماً بعد آخر من روح الحب. نغضب ونثور لأتفه الأسباب. تصغر في عيني، بقدر ما تنأى عني. صرنا غريبين تقرِّب بيننا مشاعر مشتركة. أعطيها «الحبّة» بيدي عند النوم كي لا تغافلني وتضعني أمام الأمر الواقع مرة أخرى. أتمدد على حِجرها وعيني على الشاشة الصغيرة. لا تترك الفرصة تفلت من بين يديها. تخبرني إلى أيّ مدًى تغيرتُ، وتذكّرني بالليالي الخوالي، فأتنهد من الأعماق. أرغب أن أزف البشرى اليها: لقد وجدتُ ضالتي بعد طول عناء؛ ولجتُ عالمَ الفنّ الموشّى بالسحر والظلال، وكفاني الوقتُ المتبدد أمام التلفزيون رتابةَ الخوف وترقُّبَ المجهول. أُلاحق بـ«الريموت» البرامج الفنية المتنوعة ومباريات الكرة. حفظتُ عن ظهر قلب كل الأدوار ووجدتني أحدّد مسار الأحداث قبل أن تقع وأحدس نهايتها دون أن أفقد لذة الاندماج والمتابعة. شرعتُ في كتابة سيناريوهات عديدة مستجيباً لرغبة جامحة سيطرتْ عليّ، لكني منيتُ بفشل ذريع. فرغم فبركة الأحداث، تتحرك الشخصيات كدميً فاقدة الحماسَ والروح. حتى مصائرها بيدي، وكان عليَّ أن أمزقها وأطرحها جانباً.. أضطجع مبهور الأنفاس، أتبع الكرة المستديرة الحائرة بين أقدام اللاعبين. تشرئب أطرافي. تتشنّج قبضاتي. أنتفض مهللاً.

كنت منذ الصغر نشازاً بين أترابي، أتنكر للعبتهم هذه وأحطّ من قدرها. الآن يروقني هذا التلاحمُ البشري كحبات الرمال المتلاصقة. يتصاعد هديرهم وقد انحصر الخلاف بينهم في أمرين لا غير. غير أني لا أرتاح أبداً الى لقطة «الزووم» تسقط على وجهٍ بعينه: تقرِّبه، وتقربه حتى يملأ الشاشة، فتنجلي ملامحه وتبين خطوطه. أصبحت موزعاً بين عالمين رائعين: عالم الفن، وعالم الكرة. لا لا أرتوي منها وأخاف في ذروة النشوة عليها من الزوال والنفاذ. أتابع بشغف، إلى جانب مسابقاتنا المحلية، كأسَ العالم، وكأس كؤوس الأمم الأوروبية، وكأس القارة الأفريقية. وأتسقّط أخبار المشاهير الكروين ـ مثلما فعلتُ مع أهل الفن ـ عبر وسائل الأعلام المختلفة؛ من الساحر «مارادونا» الى الساحر «رضا عبد العال»: أهدافهم، إصاباتُهم، أثمانهم عند البيع للأندية الأخرى، ومشاعرهم الخاصة جداً التي نادراً ما يصرِّحون بها، كتلك التي تعتريهم وهم قعود على خشبة الاحتياطيين أو عندما يأمر «الكوتش» بإشراكهم في اللعب والمباراةُ توشك على الانتهاء.

وعرفت أخيراً الطريق الى الملعب. أذهب في الصباح الباكر حاملاً معي القبعة والجريدة وسندويشات الفول وكيس الفشار. أكون أول الداخلين في أغلب الأحيان. أصرف الوقت المتلكئ في تصفح مبتسر يَقنع بالعناوين وعيني على المتفرجين يهلّون فرادى وجماعاتٍ. أتبعهم حتى يأخذوا أماكنهم. يمتلئ الملعب، ويصبح الحصول على مكان شاغر أمراً صعب المنال. تختلط الأصوات. تتلاقى الأنفاس. تغمرني الغبطة والسرور ولا أدري لِمَ أتذكر بطن الحامل. بين الصياح والصفير أقف لألوِّح بقبعتي للاّعبين وهم يُقبلون نحونا رافعي الأيادي. تستعر حرارة المنافسة وتتسارع وتيرة اللعب. أقوم وأجلس. أصفق وأهتف وأصفر وأرقص حتى ينال مني التعب والإعياء.

الإسماعيلية